

## الفروق في النظم بين طريقي القصر بإنما و"ما" و"إلا" عند الجرجاني

the differences in composition between condensation with "Innama"  
and condensation with 'negation and exception' when Jurdjani

\*شارف عبد الكريم

<sup>1</sup>المركز الجامعي نور البشير. البيض. الجزائر [a.charef@cu-elbayadh.dz](mailto:a.charef@cu-elbayadh.dz)

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2023/12/08

تاريخ الإرسال: 2023/06/03

\*\*\*\*\*

### ملخص:

تروم هذه الأوراق ببيان تأثير البحث البلاغي بالقرآن الكريم، ذلك أن بحوث الإعجاز فتحت الأفاق على علوم كثيرة لا تزال تدين في وجودها واستمرارها لهذه الدراسات. ولما كان القرآن الكريم معجزا في أحد وجوه إعجازه - من جهة فصاحته وبيانه، انبرى كثير من البلاغيين للتأليف في أمر الإعجاز، وكان هذا فتحا في مجال البلاغة، وتتابعت أجيال المؤلفين، وزاد نشاط التأليف حتى استوت البلاغة قائمة بثبات عند الجرجاني، الذي استفاد مما كتبه السابقون، من المتكلمين خصوصا، وكان في غمرة الرد وتصحيح المفاهيم، ودفع الشبهات، عاكفا يؤصل لنظرية بلاغية. وقد اخترنا من مؤلفه دلائل الإعجاز، الذي ضمنه نظرية النظم، فصل "القصر" لعلنا نستفيد مما سطره الجرجاني فيه من فروق في النظم بين القصر ب "إنما" و القصر ب "النفى والاستثناء" وما ينطوي عليه من لطائف معنوية قد لا يدركها كثير من أرباب الإنشاء، مستدلا بنظم القرآن الكريم. وقد ابتدأنا البحث بتعريف النظم عند الجرجاني ومقوماته ثم رصدنا طريقي القصر اللذين ذكرَ، والفروق بينهما مع التركيز على الشواهد القرآنية

كلمات مفتاحية: نظم: قصر: الجرجاني: القرآن: بلاغة

**ABSTRACT:** These papers attempt to demonstrate the influence of rhetorical study on the Holy Quran, as the studies of I'jaz have opened up many horizons on various sciences that continue to owe their existence and persistence to these studies. Since the Quran is miraculous in terms of its eloquence and clarity, many rhetoricians were inspired to write about I'jaz, which led to the development of the field of rhetoric. Generations of authors followed, and the activity of writing increased until rhetoric became firmly established with Al-Jurjani, who benefited from the works of his predecessors, especially the theologians. We have chosen from 'Dalail al-I'jaz,' which includes the theory of composition, and we selected the chapter of "condensation" in the hope that we can benefit from what Al-Jurjani has written about the differences in composition between condensation with "Innama" and condensation with 'negation and exception,' and the subtle meanings it entails that many writers may not be aware of, using the compositions of the Holy Quran as evidence.

**Keywords:** Rhetoric ; Al-Jurjani ; Quran ; composition ; condensation

كان المرتكز عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز بيانَ الوجوه التي من أجلها كان القرآن الكريم معجزاً، وقد ابتدأ الكتاب بتحقيق مسألة النظم، وبأنه تعلّق الكلم ببعضه ببعض، وأنه لا يعدو ثلاثة أقسام، من حيث إن الكلام المفيد لا يخرج عن "تعلّق اسم باسم، وتعلّق فعل باسم، وتعلّق حرف بهما"<sup>1</sup>، وهذه الطرائق هي التي تكلمت بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وتحدى الشاكّين بأن يأتوا بمثله، فلم يستطيعوا، والأمر متعلّق بالمزايا التي ظهرت في نظم القرآن الكريم، مزايا قصرت عن مجاراتها قوى البشر.

وإذا كان هذا أمر الإعجاز، فليس يكفي التوقف والإعراض عن تفسير المزايا والخصائص التي انفرد بها القرآن، بل إنه أقرب إلى العقل، وأزيد في العلم عند الإنسان أن يطيل النظر في ذلك، ويقص الأثر حتى يمكنه التدليل على كل ما كان به الإعجاز ويعرف دلائله، وأن يكون استحسانه النظم. إن استحسانه. من جهة هو يعلمها، ويملك دليلها، ويستطيع التعبير عنها وشرحها، وهذا. في رأي الجرجاني. علم شريف، جليل الفائدة، وهو مرتبط أشد الارتباط بعلم النحو.

إذن، فجلالة علم البيان، الذي دعا الجرجاني إلى تعاطيه، شيء يستمدّه من قصد متعاطيه، الذي لا يرضى بالوصف المجمل في شأن الفصاحة والبلاغة، ولا يقصّر علم النحو على تعلّم حركات الإعراب، ولا يزهّد في الشعر ودراسته متحجّجا بأحوال الشعراء، وبما جاء في ذمّه. إن البيان. كما يرى. هو علم به يتوصّل إلى معرفة كتاب الله تعالى، ولا يصير الدارس عالماً بأسرار البيان إذا هو لم يعرف أسسه الذي يبني عليه، وأسس البيان النحوي، وروح النحو معرفة معانيه التي من أجلها تتفاوت العبارات في الحسن، وتختلف في المعنى.

وتأتي هذه الورقات للإجابة على الإشكالية: إذا كان للنظم تأثير في المعنى، فما أوجه الاختلاف بين القصر بطريق "إنما" والقصر بطريق "بالنفي والاستثناء"؟

## 1. معنى النظم عند المؤلف:

النظم في أحد تعريفاته هو "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله"<sup>2</sup>، وليس المراد يراد بعلم النحو. في هذا المقام. أن يحقق الناظم حركات الإعراب، أو الاكتفاء برصف الكلمات ليؤلف بها كلاماً مستقيماً، حتى تؤدي معنى يفهمه السامع، بل المغزى في التصرف في معانيه (النحو)، ومعرفة الفروق في كل باب، كأن يُنظر في أحوال التقديم والتأخير، وأحوال التعريف والتنكير، وأحوال الحذف والإضمار، والتكرار، وفي معاني الحروف وغيره.

على أن النظم الذي يعنيه الجرجاني، وهو النظم الذي يقع فيه التفاضل، ويوصف بالحسن أو الفساد لشيء في تأليفه ونسجه، ليس ذلك النظم الذي أنشأ به صاحبه كلاماً لم يعمل فيه شيئاً سوى أنّه منع ألفاظه أن تتفرّق، كالذي يجيء إلى أشياء يرتبها ترتيباً من غير أن يريد منها هيئة<sup>3</sup>، وإن كان من جهة صناعة النحو مستقيماً، بل المقصود أنه لا يفوق نظم ما نظماً آخر "حتى يكون الناظم قد صنع في الإنشاء ما لا يحصل إلا بعد فكر وتروّ، وأن يكون قد اختار بين الألفاظ والتراكيب التي تتفاوت في دلالاتها على الغرض"<sup>4</sup>، لأن غاية الأمر، ورسالة كتاب

الدلائل ليست في "تعليم صناعة النحو التي يحتز بها من اللحن في الكلام ، أو ذكر علامات الإعراب وإنما المراد بسط أمور يتفاوت فيها الناس من جهة الإنشاء ومن جهة الفهم"<sup>5</sup>.

إذن ، فالنظم الذي يبحثه كتاب دلائل الإعجاز هو تركيب كلام المتكلم بحسب الغرض الذي يريد ، على أن يكون فيه أعمال نظر وروية ، فأغراض المتكلمين يمكن أن تتحقق في هيئات كثيرة من النظم ، لكن بعضها قد يفضل بعضها ، ويرى الجرجاني "أن لفظ "المعنى" ، في هذا السياق ، يقصد به الغرض ، والذي يريد المنشئ للكلام إثباته أو نفيه ، مثل أن تريد تشبيه الرجل بالأسد في شجاعته فتقول فلان كالأسد ، ثم تريد هذا المعنى نفسه فتقول كأن فلانا الأسد فتفيد التشبيه أيضا بالأسد ، إلا أن المعنى في الثاني يفضل المعنى في الأول"<sup>6</sup> ، فالمبالغة حصلت بالنظم والترتيب ، وما حصل فيهما من اختيار .

وقد أفرد الجرجاني بابا للقصر (الاختصاص كما سمّاه) يبين فيه اختلاف الطرق ، والمعاني المستفادة من كل طريق ، والمقامات التي يستعمل فيها كل قصر ، وكان الحديث عن القصر بإنما والقصر بالنفي والاستثناء ، فواصل إثبات الفكرة الرئيسية لكتاب الدلائل ، وهي أن قول النحويين "إن المعنى في هذا هو المعنى في ذاك" ليس المقصود به أن يكونا متطابقين في المعنى مع أن التركيب مختلف ، أو "أن يكون سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد"<sup>7</sup> ، فهناك فرق بين كون الشيء فيه معنى الشيء (تشابه المعنيين ) و كون الشيئين متطابقين تماما ، وهذا في رأيه لا يحصل مادام النظم والترتيب مختلفين .

## 2. القصر :

لغة : القصر في اللغة هو الحبس ، وقصرت الشيء على كذا حبسته عليه وخصصته به و لم تجاوز به غيره ، و في تفسير لفظ مقصورات في الآية قيل "قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم"<sup>8</sup>

اصطلاحاً : القصر عند البلاغيين هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ،..والطرف الأول يسمى المقصور ، و يسمى الطرف الثاني المقصور عليه ، والطريق المخصوص هو الأدوات التي يكون بها أسلوب القصر<sup>9</sup> والمراد بالتخصيص أن تثبت شيئاً لشيء وتنفيه عما عداه ، ويسمى كذلك الاختصاص والحصر .

والقصر من أساليب التوكيد ؛ لأن المتكلم يقصد به إلى تمكين المعنى في نفس السامع ، وقول المتكلم "أحمد شاعر ، ليس فيه اختصاص بالشاعرية ، ولا يفهم منه توكيد الحكم ، أما قوله "إنما أحمد شاعر" فيحصل به الإخبار والاختصاص والتوكيد ، كما أن في بعض طرق القصر إيجازاً ، فجملة القصر في قوة جملتين بتضمينها الإثبات والنفي ، وللقصر طرق كثيرة أشهرها :

النفي والاستثناء كقولنا ما خالد إلا كاتب

القصر بإنما مثل إنما خالد كاتب

التقديم والتأخير مثل على الله توكل

.العطف ويكون ب لا ، بل ، لكن . مثل خالد كاتب لا ممثل.

ولأسلوب القصر طرفان هما المقصور والمقصور عليه ، ففي قولنا إنما خالد كاتب قصرنا الموصوف على الصفة ، والمقصور هو المتقدم ، والمقصور عليه المتأخر.

والقصر يراد به القلب ، أي قلب اعتقاد السامع إذا كان يعتقد عكس ما تتضمنه جملة القصر، ففي "ما أحمد الإشاعر، يراد القلب إذا كان السامع يعتقد أن أحمد ممثّل مثلاً أو روائي، ويراد الأفراد إذا كان السامع يعتقد الشركة (أي كون أحمد شاعر وممثل)، وإن كان يشكّ فالقصر لتعيين أحد الأمرين.

### 3. القصر عند الجرجاني :

يبدأ الجرجاني حديثه عن القصر (الاختصاص) بعرض رأي أبي علي الفارسي حين جعل القصر بإنما في معنى القصر بالنفي والاستثناء ، ويصحّ قول النحويين في ذلك ، حين جعلوا الطريقتين بمعنًى واحد ، وفسّروا به قوله تعالى "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ" الأعراف 33، ويستدل أبو علي على ذلك بقول الشاعر :

أنا الذائدُ الحامي الذماروإنّما يدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي .

فقد فصل في البيت ضمير المتكلم أنا ، وبنى الفعل (يدافع) مع الياء ، فامتنع أن يكون المعنى مستقيماً إلا مع حمل الفعل على النفي أي "ما يدافع إلا أنا " .

وقد جعل الجرجاني رأي الفارسي سنداً يبني عليه مناقشاته اللاحقة بخصوص الفروق بين طريقي القصر، ونراه يتمسك بعقيدته التي ظل ينافح عنها في الدلائل ، تلك التي لا تعترف بتساوي هيئات النظم في المعاني ، فصلاحيّة حمل بعض أساليب إنما على النفي والاستثناء ، لا تقتضي أنّ هناك تطابقاً كاملاً بين التعبيرين "لأنه وإن كان في أحد الطريقتين معنى الطريق الآخر ، فليس معنى ذلك أن يكون الطريقتان متساويتين في الدلالة ويكون استعمال أحدهما مكان الآخر في كل مقام وفي كل جملة صالحاً" <sup>10</sup>.

### 1.3. القصر ب "إنما":

#### 1.1.3. في المعلوم أو ما هو بمنزلة المعلوم:

من خصائص التعبير في طريق القصر بإنما أنّ الكلام يكون معها موضوعاً في الأصل لخبر لا يجهله المتلقي ولا يدفع صحته ، أو ما نُزِلَ هذه المنزلة ، ويستشهد الجرجاني في هذا السياق بشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر ، فمن القرآن الكريم يذكر المؤلف قوله تعالى " إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ (36) الأنعام ، وقوله تعالى " إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ (11) "يس ، ويرى في الاختصاص بإنما في الآيتين "أن الله تعالى ذكر رسوله الكريم بأمر هو من الثابت المعلوم ، وتفسير ذلك أنّ كل من له عقل يعرف أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ، والإنذار كذلك يكون له الوقوع إذا كان مع من يؤمن بالله " <sup>11</sup>، والفائدة في إعلام المتلقي بأمر لا

يجعله ،ولا يجادل فيه أو ينكره ،أنّ المتكلم يرمي إلى تنبيهه إلى ما يقتضيه علمه بالخبر ،وقد ذكر الشيخ في تعليقه على بيت الشاعر : إنما أنت والدُّ والأبُّ القــــاطعُ خيرٌ من واصل الأولاد

"لم يقصد الشاعر أن يعرف الممدوح أنه والد ،ولكنه أراد أن ينهيه إلى الأمر المعلوم حتى يحصل له ما يقتضيه كونه في مقام الوالد"<sup>12</sup>، وكأنما هو يلمح بحاجته ولا يصح .

وأما ما ينزل منزلة الأمر المعلوم ،فيبينه المتكلم على ادعاء ،بأن يجعل ما ليس من المعلوم وكأنه من الثابت بغرض المبالغة كما قال: إنما مصعب شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

ومثل هذا، في رأى الجرجاني تصلح فيه إنما ،ويجوز استخدام القصر بطريق آخر هو "النفي والاستثناء" غير أن الطريق الأخير يُخرج المعنى عن الغرض الذي أراده المتكلم ،من حيث إن "إنما" لما كانت موضوعة في الأصل للأمر المعلوم الذي لا يُجادل فيه ،تجعل ادعاء الشاعر بأن الممدوح "شهابٌ" شبهها بالحقيقة التي لا ينكرها السامع، وعدوله إلى طريق "ما وإلا" يذهب سحر المديح ،ومن الشواهد القرآنية التي يرى الجرجاني أن المتكلم يبني كلامه على ادعاء يخيّل فيه أن ما يدعيه صحيح لا يدفعه دافع قول اليهود ،وهم يريدون زورا أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة الإفساد في الأرض ،وفي القرآن الكريم حكاية قولهم "قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ" (11) البقرة ؛وذلك أنه لما ادّعى المخاطبون في الآية أنهم أهل إصلاح "أظهروا أنهم يدّعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوما ،ولذلك أكد الله تعالى الأمر في تكذيبهم والرد عليهم في قوله " أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ" (12) البقرة

### 3.1.2. النفي والایجاب معاً :

يرى الجرجاني أن القصر بإنما يفيد "إثبات الفعل لشيء ونفيه عما سواه" وهذا المعنى قد يعبر عنه بطريق آخر للقصر ،كالعطف بلا ،فيكون "إنما زارني خالد" شبهها بقولنا "زارني خالد لا سعيد"، لكن النظم في أسلوب القصر الذي يجيء بإنما، يوفّر على المتكلم والسامع وقتا وجهدا في فهم معني "الإثبات والنفي" لأن "إنما" من حيث كانت جملتها لا تحتوي على نفي مصرح به . كما يرى . " يفهم معها إثبات الفعل لشيء ونفيه عن غيره مرة واحدة من غير أن يكون النفي مصرحا به بعد الإثبات "<sup>13</sup> ، وهذه مزية لها ليست في القصر بلا ، والمزىة الأخرى "لإنما" أنها من حيث كانت في صدارة الكلام "يكون الأمر معها ظاهرا في أن الزائر خالد ،ولا يكون هذا الأمر ظاهرا إذا جعلت جملة القصر بلا ،فقلت زارني خالد لا سعيد"<sup>14</sup> ،لأن النفي بهذا الأخير خاص (الزيارة ثابتة لخالد منفية عن سعيد) والنفي في القصر بطريق إنما نفي عام (الزيارة ثابتة لخالد منفية عن كل أحد غيره) .

وموضوع إنما في نوع القصر ،من حيث حال المتلقي ،أنها تحمل المعاني التي في القصر بلا ،فكما تكون لا لعكس اعتقاد المتلقي تكون إنما (تكون لا وإنما في قصر القلب) ولا يراد بهما دفع شبهة الاشتراك (الإفراد) ،"فإذا قال قائل مثلا إنما زارني خالد لم يكن الغرض عنده أن ينفي أن يكون زاره مع خالد أحد غير خالد، ولكن ينفي أن تكون الزيارة التي قال كانت من سعيد،" وكذلك يكون الالتباس مرتفعا في أن ليس معنى العبارة أن هناك زائرين ،وأن ليس إلا زائر واحد"<sup>15</sup> ، ويردّ الجرجاني على الاعتراض الذي يزعم أن إنما تكون في قصر الأفراد ،وأنها ترد في عبارات من مثل "إنما زارني من بين الرجال خالد وحده" بأن ذلك أسلوب فيه شيء من التكلف، ثم إن

المعتبر في مثل هذا إذا لُفِظَت الجملة فلم تقيّد بالحال (أي وحده وما يشبهها في المعنى)، ولا يخفى أن القائل إذا قال إنما زارني خالد، ولم يزد على ذلك، أنه لا يُفهم عند المتلقي من المعنى إلا ما سبق شرحه (أي كون إنما لقلب الاعتقاد)<sup>16</sup>، فالنص على ما يرى من كونها للقلب هو المعروف من الكلام البليغ، وأنّ تقييدها بالألفاظ المذكورة. زيادة على كونه تكلفاً يبعُد بالكلام عن البلاغة. لا يُبطل القاعدة .

### 3. 1. 3. جواز العطف بعدها ب"لا" :

مع إقرار الجرجاني بأن القصر بإنما يتضمن النفي والإيجاب، فإنه لا يرى مانعاً من العطف بلا، بخلاف ما يكون في حال النفي والاستثناء، وتفسير ذلك أن قولنا "إنما زارني خالد لا سعيد" جائز لسببٍ هو أن الكلام لا يتضمن نفياً صريحاً، وإنما النفي يستفاد من طريق المعقول، والذي فيه "انك قررت أن خالداً هو الزائر (أي هو الزائر دون غيره)، وهذا الكلام، وإن كان يحمل نفي الزيارة عن غير خالد، فليس يوجب المعنى من أجل أن كان سبب ذلك إعمالك النفي في شيء، وإنما يوجبه من حيث كانت الزيارة زيارة مخصوصة<sup>17</sup> والذي يأباه الكلام المستقيم أن تذكر "لا" في نظم تضمن قبل إدخالها نفياً صريحاً، لأنه لا يصح أن يكون نفي بلا تالياً لما نفيته قبلاً بحرف نفي، فتقول "ما زارني إلا خالد لا سعيد".

والعطف بلا بعد إنما مع جوازه، فإننا نرى الجرجاني يستحسنه في المقامات التي لا يكون فيها الاختصاص قوياً كما تقول "إنما زارني خالد لا سعيد"، وذلك لأن الزيارة يمكن وقوعها من غير خالد، كما وقعت من خالد فحسن في هذا المثال تأكيد الإثبات بالنفي، "وإذا كان الفعل بعدها فعلاً لا يصح وقوعه إلا من المذكور، ولا يكون من غيره كالتذكّر الذي يعلم أنه لا يكون إلا من أولى الأبواب لم يحسن العطف بـ "لا" فيه"<sup>18</sup>، فلا يحسن. في رأيه أن تقول مثلاً إنما يتذكر أولو الأبواب لا الجهال، لأن الفعل (يتذكر) تختص به الطائفة المذكورة في الآية، من غير أن يحتاج المتكلم نفيه صراحة عن غيرهم، والنفي قد يتأخر كما في قوله تعالى "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ" (21) الغاشية، وقد يأتي متقدماً كما في "ما زارني خالد وإنما زارني سعيد، على أن الفائدة في دخول "إنما" هي قلب اعتقاد المتلقي الذي غلط في عين الزائر، وأن الكلام بالواو دون إنما دفع لوهم الاشتراك (قصر أفراد)، وكذلك الحال لو أنشأ المتكلم كلاماً بأن دون ما. التي لا يرى النحويون سوى أنها كافة لعمل إن. فقال مثلاً ما زارني خالد وإن سعيداً زارني، "فلا نفهم منه أنه أراد أن الزائر سعيد لا خالد، بل يكون دخول لفظ إن كالمشيء الذي لا يُحتاج إليه، ووجدته حشواً يأباه المعنى"<sup>19</sup>، ومعنى هذا أن انضمام "ما" إلى "إن" ليس انضماماً لكفّ "إن" عن عمل النصب، بل هو أمر يحصل به الاختصاص من جهة، ويسيع دخول إن في الكلام، وفي ملاحظة هذا الفرق تجاوز من الجرجاني للنحو إلى معاني النحو .

### 3. 1. 4. "إنما" يراد بما بعدها التعريض :

ومن الأسرار في نظم أسلوب القصر بإنما أنها تحسن فتراها "أقوى ما تكون.. إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناها، ولكن التعريض بما هو مقتضاه"<sup>20</sup>، ويعضد هذا ما رأى الجرجاني في أن الغرض في قوله تعالى "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الرعد"، ليس أن يعلم المتلقون الظاهر من معناه، ولكن المراد أن يذم الكافرين، وأن يقال: إنهم من كثرة عنادهم ومن تغلب الأهواء على قلوبهم بمنزلة من ليس له عقل يعقل به، وأنكم إن رجوتهم



منهم أن يتذكروا ،كنتم كمن طمع في ذلك من قوم غير مَن ذكر الله في الآية "21 وكذلك يراد معنى التعريض في قوله تعالى "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا" (45) النازعات ،وقد احترز الجرجاني بقوله "وجدتها أقوى ما تكون " من أن يكون هذا المعنى معها مطردا ،فيفهم منه أنها لا تكون إلا في المواضع التي يراد بها غير معناها الصريح ومما جاء بمعنى التعريض في الشعر قول العباس بن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتي إنما للعبد ما رزقا

فالإشارة التي أراد الشاعر هي أن يرضى من المحبوبة بالصدود وهذا المعنى التعريضي لا يفهم من ظاهر العبارة

وحاصل الأمر في إنما أنها بتضمها النفي بعد الإثبات يكون للكلام بها المعنى التعريضي ،ولو أسقطت منه ، فإنه لا يتغير بنفسه ،غير أنه يخلو من معنى التعريض ،ولو قيل "يتذكر أولو الألباب لكان معنى الكلام أن الله يصف هذه الفئة بأنهم يتذكرون ،ولكان بعيدا أن يفهم منه معنى نفي التذكر عمن ليس من أولي الألباب ،ويستحيل أن يكون في الكلام تعريض بأمر ما وليس في ظاهر الكلام ما يشي به ،ولا فيه دليل على احتماله"22.

### 2.3. طريق ما وإلا :

#### 2.3. 1. دخوله على النكرة والحرف الزائد :

يبدأ الجرجاني استدراكه على أبي علي الفارسي بتحليل نظم القصر بالنفي والاستثناء ،وبيانه أن طريق القصر بما وإلا يصلح للدخول على نكرة فيجوز ما أحد إلا وهو يقول ذلك ،وقد تسبق النكرة بحرف جر كما في قوله تعالى "وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ (62) آل عمران، ولا يجوز الأمران في طريق القصر ب إنما، مع أنها تتضمن معنى النفي والاستثناء ،وصلاحيتهما في مواضع للنيابة على ما وإلا ،وسبب ذلك . في رأي المؤلف . أن النفي في طريق القصر بإنما ضمني وليس نفيا صريحا ، لذلك لم يصح مثل قولنا إنما أحد وهو يقول ذلك ، ولا قولنا إنما من أحد وهو يقول ذلك ، لأن المعتمد في مثل هذا النظم أن يكون مصدرا بنفي صريح أو ما يشبه النفي كالاستفهام ،وإذا لم يصح هذا كان اعترافا بأن ليس القصر بالطريقين سواء ،لأنهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون في القصر إنما من معنى النفي مثل ما يكون في القصر بما وإلا 23.

#### 2.3. 2. تستعمل في ما ينكره المتلقي أو يشك فيه :

بخلاف القصر بإنما ،يستخدم القصر بالنفي والاستثناء في الخبر الذي يجهله المتلقي أو يشك فيه أو ينكر أن يكون صحيحا "فإذا قلت ما هو إلا مصيب ..قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت 24"، ولم يستدل الجرجاني في هذا المقام بالشواهد القرآنية أو الشواهد الشعرية مثل صنيعة في إنما ،وغاية ما فعل أنه أشار إلى أن ما مضى من الأمثلة التي صلحت فيها إنما لا يقال بالنفي والاستثناء إذا كان الأمر فيه ظاهرا ،وقد يجوز إذا كان الأمر مما ادعى فيه القائل أنه من المعلوم الثابت ،كما في قول الشاعر "إنما مصعب ... فتقول "ما مصعب إلا ... "

، غير أنك بهذا النقل تنقل الكلام كذلك عن الغرض الذي أراده القائل ، ويخرج كلامه عن أن يكون على حد المبالغة كما سبق .

### 3.2.3. لا يجوز العطف فيه بلا :

يتابع الجرجاني كلامه السابق ، فيجعل بين النظمين فروقا أخرى ، منها أن النفي لما كان صريحا مذكورا ابتداءً في مثل قولنا "ما خالد إلا قائم " لم يصحّ عطفه بلا كما يصحّ في مثل "إنما خالد قائم لا قاعد "، ولمزيد بيانٍ يشرح صاحب الدلائل ذلك بأنه لا يجوز في كلام العرب مثل قولنا "ما خالد إلا قائم لا قاعد " لأنك "إذا قلت ما خالد إلا قائم فأنت تنفي عن خالد كل صفة تخالف القيام وصرت كأنك تقول ليس هو بقاعد ولا نائم ، فإذا قلت من بعد هذا النفي لا قاعد كنت قد كررت النفي ب لا العاطفة أمرا قد بدأت فنفيته في أول كلامك ، وذلك يخرج لا العاطفة عما هي موضوعة له في الأصل إلى ما هو خلافه <sup>25</sup>.

### 4.2.3. يراد به قلب الاعتقاد والإفراد :

يرى الجرجاني أن القصر بالنفي والاستثناء (ما وإلا ) يكون لقلب اعتقاد المتلقي كما يكون لإفراد المقصور عليه ، بخلاف إنما التي لا يكون معها دفع احتمال الاشتراك ، لأن قائلا لو قال "ما زارني إلا خالد " كان مراده من الكلام أحد أمرين : أن يريد اختصاص خالد بالزيارة فيكون كلامه كلاما يقال لمتلقي يعلم أن المذكور (خالد) قد كان منه زيارة ، لكنه يعتقد أن الزيارة كانت منه ومن غيره كذلك ، أو أن يريد قلب اعتقاد المتلقي فيكون كلاما يقال ليعلم أن الزائر خالد لا أحد غيره. ومن شواهد الجرجاني الشعرية قول الشاعر

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا

فالذي أراد . حسب المؤلف . أنه هو من قطر الفارس ، "ولم يرد الشاعر أن يفهم من كلامه أنه اختصّ بالفعل "قطر" هو دون أن يشاركه غيره فيه "، ومن شواهد من القرآن الكريم . وإن كان لا يصح تسميته قصر قلب . قوله تعالى "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ (117) المائدة ، وهو أن يعبدوا الله ، فسر المؤلف ذلك أن المعنى قول عيسى عليه السلام "إني لم أترك ما أمرت به أن أبلغهم إياه وقلت لهم كلاما غيره .

### 4. ما يشترك فيه الطريقان :

#### 1.4. موقع المقصور عليه :

يناقش الجرجاني في حديثه في موقع المقصور عليه في القصر بإنما والقصر بالنفي والاستثناء مسألة التقديم والتأخير بين طرفي الجملة، ويستند في شرحه المسألة إلى قول الله تعالى " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (28) فاطر، من حيث كان التقديم والتأخير في الشاهد إنما كان لأجل أن الغرض في السياق أن يبين الخاشون من أي زمرة هم ، ويخبر بأهم العلماء خاصة دون غيرهم من الناس <sup>26</sup> ويفرق بين ما يقتضيه السياق في الآية السابقة ، وبين ما يقتضيه في قوله تعالى "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (39) الأحزاب، من أن المعنى في الثانية ، وإن كان هو بيان الخشية من الله ، "فليس هو الغرض المقصود في الآية . ولا الكلام فيها يحتمل معناه ، ومن رأى أن



المعنى المراد هو نفسه في الآيتين كان قد بطل عنده ما في التقديم والتأخير من فائدة<sup>27</sup>، وحاصل المسألة أن المقصور عليه هو المتأخر في كلا الطريقتين، وعلى هذا استحسن فصل الضمير في مثل :

أنا الذائد الحامي الذمارو إنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فقد بني الفعل المضارع (يدافع) على الياء مع أن المقصود هو المتكلم، والغرض منه أن يجعل الاختصاص للمدافع (الشاعر) لا المدافع عنه (الأحساب)، وليس يستقيم غرض الفخر إلا بهذا (أي فصل الضمير وجعله متأخراً) ولو عمد إلى الفعل فقال أدافع عن .. أنا لكان الضمير المنفصل توكيدا للضمير المستتر في الفعل، فلا يحصل للشاعر، كذلك، ما أراد من الفخر.

وكذلك المبتدأ والخبر بعد إنما، فإن الاختصاص يقع للمتأخر منهما فإذا قلت "إنما المحبة لك" كان المقصور عليه هو الخبر (الجار والمجرور) والدليل أنك لو جئت بمعطوف لقلت إنما المحبة لك لا لغيرك " بخلاف قولك "إنما لك المحبة" فإن المبتدأ المؤخر (المحبة) هو المقصور عليه، ولو أردت التفصيل لقلت إنما لك المحبة لا الكره "والقصر يكون دائماً في الذي إذا أوردت في كلامك لا العاطفة كان العطف عليه<sup>28</sup>"، ولإيضاح المسألة يرى المؤلف أن المقصور عليه في قوله تعالى "إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ" (40) الرعد، هو المبتدأ (البلاغ، الحساب)، وهو الخبر في قوله تعالى "إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ" (93) التوبة. أي شبه الجملة (على ...)

أما في النفي والاستثناء فالمقصود عليه هو الذي يقع بعد إلا، وسبب ذلك أن الاختصاص في رأي الجرجاني لا يقع في الفاعل والمفعول معاً، في الجملة الفعلية، ولا في المبتدأ والخبر، كما أنه لا يحدث أن يكون حصر أو اختصاص مفاد في النظم بإلا ويكون في لفظ قبلها "ومستحيل أن يحصل معنى لحرف في لفظة من قبل أن يرد ذلك الحرف<sup>29</sup>، والأمر نفسه إذا كان الفعل يتعدى إلى مفعولين، فيكون الاختصاص لما بعد إلا مباشرة، مثل "لم يهد إلا خالدا قصة، فالاختصاص في خالد لأنه واقع بعد إلا مباشرة.

أما إذا عمد المتكلم إلى الفاعل والمفعول فإن ما يلي إلا هو المقصور عليه أي المتقدم منهما (فاعلاً أو مفعولاً)، كما تقول ما ضرب إلا خالد سعيداً، وهذا "ليس المعتمد في الكلام ولا هو بأكثره، حتى أن بعض العلماء رأى أن في العبارة كلامين، وأن المفعول منصوب بفعل محذوف، وكأن القائل قال ما ضرب إلا خالد، فسئل من ضرب؟ فقال ضرب سعيداً.

#### 2.4. النفي والاستثناء للأمر المعلوم خلافا للأصل :

سبق أن النفي والاستثناء يأتي في الأمر يدفعه المتلقي أو يشك فيه، وهذا هو الأصل فيها، ولم يشر الجرجاني في حديثه عن طريق القصر هذا إلى أنها تأتي بمعناها الأصلي في القرآن، بل على العكس من ذلك فإن شواهد القرآنية للقصر بالنفي والاستثناء، حين يُعدل به عن الأصل كثيرة ومتنوعة، ولعل السر في ذلك أن النكت البلاغية في أسلوب القصر بهذا الطريق تتعدد، فيأتي في الأمور المعلومة عندما يستدعي حال المتلقي تنزيهه

منزلة المنكر لهذا المعلوم<sup>30</sup>، وفي رأيه أن القصر جاء بالنفي والاستثناء في قوله تعالى "قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا" (10) إبراهيم، في خطاب الكفار للرسول، خلافا للأصل "لأن المكذبين برسالة الرسل جعلوهم وكأنهم بإعلانهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن جنس البشر، ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب<sup>31</sup>"، وكذلك الأمر في قول الله.

تعالى "وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) فاطر، فقد جعل حال النبي صلى الله عليه وسلم حال من ظن أنه يملك أن يوقع الإيمان في قلوبهم، ومثله في قوله تعالى "إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ" (188) الأعراف. بالنفي والاستثناء دون إنما، وجملة الأمر في رأيه أنه لا يعبر عن الأمر المعلوم بالنفي والاستثناء دون إنما إلا "لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه"<sup>32</sup>.

#### خاتمة :

إن الاختلافات التي رصدها الجرجاني في دلائل الإعجاز بين أسلوب "إنما" و "النفي والاستثناء" في باب القصر، هي وجه من وجوه تجليات نظرية النظم التي آمن بفكرتها، وانبرى لبيان صحتها، ولعلها تنبيه لكل ناظم قول أو سامعه، أن يحسن التأليف، ويعرف المقاصد من كل هيئة حاصلة في الكلام، كما أن في الاستدراك على الفارسي والنحاة إشارة إلى وجوب تصحيح المفاهيم بخصوص الأحكام التي تطلق على الأساليب كمثلي "هو في معنى كذا" لأن المراد الاتفاق لا التطابق.

ونخلص كذلك إلى أن لكل أسلوب مما ذكر أصلاً، وحالات يخرج فيها عن الأصل، بحسب المقامات التي يساق فيها، فالنفي والاستثناء يكون في الأمر الذي يشك فيه، غير أنه في الشواهد القرآنية التي ساقها الجرجاني جاء للأمر المعلوم خلافاً للأصل، وهذا وجه من وجوه تفرّد النص القرآني وبلاغته.

ومما يدل على ذوق الجرجاني وحسه البلاغي تنبيهه إلى أن اتحاد "إن" و "ما" لا يتوقف على إبطال حرف لعمل حرف، بل هو اتحاد لإكساب التركيب معاني لا تكون في كل حرف على حدة، لأن الاختصاص لا يحصل إلا باتحادهما.

ولقد كان للجرجاني أثر كبير في البلاغيين والنحاة من بعده، فكتاب دلائل الإعجاز ومباحثه في معاني الأساليب كان فاتحة ظهور البلاغة عامة وعلم المعاني خاصة، وهو وإن لم يتضمن أبواب علم المعاني باصطلاحاته وأقسامه المعروفة في كتب البلاغة إلا أنه يعد الحبة التي أنبتت السنبلة.

#### مراجع البحث :

#### القرآن الكريم

ابن منظور، لسان العرب، د ت، دار صادر، بيروت لبنان، د ط، د ت، ج 5.

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط 3، 1992.

عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 2000، ج 2

محمد إبراهيم شادي، شرح دلائل الإعجاز دار اليقين، المنصورة، مصر، ط 2، 2013.

\* شارف عبد الكريم

<sup>1</sup> ينظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط 3، 1992، ص 4

<sup>2</sup> ينظر المصدر نفسه، ص 81

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 97

<sup>4</sup> ض 98

<sup>5</sup> نفسه، ص 98

<sup>6</sup> نفسه، ص 258

<sup>7</sup> نفسه، ص 328

<sup>8</sup> ابن منظور، لسان العرب، د ت، دار صادر، بيروت لبنان، د ط، د ت، ج 5، ص 99

<sup>9</sup> عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 2000، ج 2، ص 3

<sup>10</sup> الجرجاني، مصدر سلبق، ص 329

<sup>11</sup> نفسه، ص 331

<sup>12</sup> نفسه، ص 330

<sup>13</sup> نفسه، ص 335

<sup>14</sup> نفسه، الصفحة نفسها

<sup>15</sup> نفسه، ص 336

<sup>16</sup> نفسه، الصفحة نفسها

<sup>17</sup> نفسه، ص 348

<sup>18</sup> نفسه ص 353

<sup>19</sup> نفسه ص 354

<sup>20</sup> المصدر نفسه، الصفحة نفسها

<sup>21</sup> الصفحة نفسها

<sup>22</sup> ص 357

<sup>23</sup> ص 329

<sup>24</sup> ص 332

<sup>25</sup> ص 348

<sup>26</sup> ص 338

<sup>27</sup> ص 339

<sup>28</sup> ص 345

<sup>29</sup> ص 340

<sup>30</sup> محمد إبراهيم شادي، شرح دلائل الإعجاز دار اليقين، المنصورة، مصر، ط 2، 2013، ص 424

<sup>31</sup> الجرجاني، مصدر سابق، ص 333

<sup>32</sup> ص 334